

## جليلة سيد درويش

فى الفترة الأولى من حياة سيد درويش قصة حب تعرف خلالها على امرأة أسلمته إلى الحيرة طويلا، قبل أن يعود للناس والجماهير الشعبية بجميع طبقاتها..  
من هذه المرأة التى - من أجلها - راح يغنى، وكأنه يُنوح:

**ضيعت مستقبل حياتى فى هواك ؟**

من هذه العائلة التى ظلت تطارده حتى بلغ درجة اليأس فراح يغنى فيما يشبه الصياح:  
أنا هويت وانتبهيت !!

**فلاش باك :**

تقول حياة سيد درويش الفنان المصرى الأصيل: إنه فى أحد أفراح الإسكندرية، وقد كان هو مدعوًا ليغنى تعرف على (عالة) اسمها جليلة..  
ويقول لنا الذين عرفوا سيد عن قرب إن جليلة هذه، كانت من أجمل نساء الإسكندرية فى وقتها، وكانت تتميز عن غيرها من نساء هذه الفئة التى تتمايل وترقص فى الأفراح، بأنها كانت ضخمة الجثة، فارهة الطول، جميلة جمالا لا يوصف..  
ويقول لنا شامدو هذا العصر إن جليلة هذه كانت امرأة لعوبا، ومن هنا، فإنه ما كاد الفنان يتعرف عليها، وما كادت تتجاوب معه قليلا، حتى عادت - شأن الغائيات دائما - تصده..  
وكان هذا الصّد منها يعود إلى غناء حياتها بالرجال والأفراح؛ بحيث إنه كان يصعب عليها الارتباط بسيد درويش وحده، وقد تعذب الفنان كثيرا فى هذا الوقت، والذين حضروا حفلاته فى الفترة المبكرة من حياته كانوا يستمعون إلى هذه الأغنية التى راح يصنع كلماتها من ذوب عشقه، ويرفع ألقانها من عذب حنينه:

يا للى قوامك يعجبينى

ليه بس ترضائى صدودك

يا هل ترى بتأدبى

أكمنى عذائى شهودك

أروح لمن أشكى حبيبي  
والدهر والعزّال حكام

الهانم :

وكلما زادت العالمة هجرانه زاد شوقه، وهيامه، ومن هنا، فإنه راح فى غيبوبة النهوى المستحيل يحيا طويلا، على أن الملاحظ لأغانيه فى هذا الوقت يلاحظ أن سيد درويش لم يكن من طراز هذا العاشق المستعطف الباكي دائما، فهو يحمل لوعة الفنان لكنه أيضا يحمل بذرة تمرده، ومن هنا، فهو فى عنائه لها لم يكن مستعظما فقط، وإنما كان غاضبا إلى درجة السخرية، عاتبا إلى درجة التلويح بالأيدى والكلمات اللاذعة.

ومثل كل فنان متطرف، فإنه كان حيننا يتحدث بأسلوب هادئ كله سخرية، وفى أحيان كثيرة كان غضبه يصل إلى أقصاه «فيردح» فى كلمات غاية فى الهجوم والغضب الشديدين.. إنه يعانى من هجر العالمة له، وغيابها عنه، وهو يعانى من صدها له ومغالبتها لحاله، فراح يعبر عن هذا بسخرية ممضة :

ما تطلعيش فيها يا هانم

كلها يومين وتعدى

ويترك مساحة صوتية فى هذه الطقطوقة ليعلو صوته من جديد

إنت السبب وحياة ربى

فى أصل تعذيبى وحبى

اصبر على الهجر يا قلبى

دى كلها يومين. وتعدى

....

عذابى لو كان يهنا لك

شئ مش غريب وحياة خالك

أد لدنيا مش دايمالك

دى كلها يومين.. وتعدى

وإذا كان الهجر يولد لديه اللوعة ويستثير فيه شجون الفنان وأحزانه، وإذا كان صد الحبيب يشعل فى قلبه ثورة الحب الأبدية، فإن الخيانة تحيل كل شئ فى حياة الفنان إلى غضب محترق، إنه علم أن جليلة هجرته لكى تتعرف على جواهرجى استطاع أن يغمرها بماله وثرائه إلى الدرجة التى نسيت معها هذا الفنان الرقيق..

وهنا وصل غضب سيد درويش إلى أقصاه، وخاصة أن العالمة لم تكتف بهجره فقط، وإنما راحت كل صباح تتهادى أمامه في «المرواح والمجى»، وهي ترتدى في قدميها خلخالاً من الذهب أهدها إليها الجواهرجى، وهذه الفترة أنجبت لنا أكثر الكلمات سخريّة في الأغنية الشعبيّة على مر العصور، لقد راح يهدد أحزانه بكلمات لا يبدو فيها اليأس بقدر ما يبدو رنة التحدى..

الأكثر من هذا، أنه راح يضيف إلى الغضب والحزن إحساساً بالتصدى لهذه الحبيبة الخائنة، وراح يصف لنا، في كثير من العبقرية العفوية، مسرح الأحداث التي دارت فيها هذه القصة، وسوف نحاول هنا أن ننقل كلمات هذه الطقطوقة التي كتب كلماتها، ثم راح يلحن ألحانها، حتى أصبحت على كل لسان بعد أن أصقلها..

تقول هذه الطقطوقة التي تشبه وصلة من الانتقام من هذه العالمة ومن الجواهرجى صاغها في

كلمات:

في الصاغة الصغيرة

شوف سوق العجايب

..

على الشمال أول دكان

صاحبه جدع اسمه القطان

عنده حلق خفة وكردان

وادي الحقيقة بتكتب

تاني دكان سيبك منه

والثالث اللي باقول عنه

تاجر شهير ولا فيش منه

ولكل شيء دائماً سبب

رابع دكان سلم لي عليه

دانا قلبي ما يملش إلا ليه

والخامس اللي اقبل ايديه

دا يساوى طب كيل ذهب

أما بقى ساتت دكان

استنى عنده يا أبو القصان

تلقى اللي فيه قاضى النسوان

عمر اللى زيه ما ينعتب

..

.. أم ركب

بيقولوا مرة عمل خلخال

ينفع ركاب لثلاته بقال

سألته مين لبسته يا عيال

قالوا جلييلة أم ركب

هل لاحظنا نبرة السخرية العالية، والهجاء الحاد للجواهرجى، وقبل ذلك، هل لاحظنا الهجوم الحاد على الحبيبة الشاردة، التى أبت إلا التعرف على الجواهرجى، الغنى، تاركة الفنان، الفقير..

يقول ابن سيد درويش تعليقاً على هذه الأغنية:

(- خلخال.. ينفع ركاب لثلاثة بقال..!! إنه حقاً لخلخال غريب عجيب فى ضخامته.. كم يساوى ثقله فى ميزان الذهب..!!؟! وكم يكون ثمنه فى ميزان المال..؟! لم يغن سيد درويش هذه الأغنية وحده بل لقتها لجميع عوالم الإسكندرية فأصبح الأبطال يغنونها وكانوا يمرّون أمام الدكان.. (الصائع) لإسماعه هذا المقطع كل يوم ليلاً ونهاراً حتى ضاق الرجل ذرعاً وترك الميدان لمنافسه.. وهكذا انتقلت الموسيقى للفنان المطعون فى كرامته)

اطلع من دول..

وعلى هذا النحو، وجدت العالة نفسها فى أفواه الجميع، كباراً وصغاراً، فى وقت غضب منها الجواهرجى، فلم تجد غير العودة إلى الفنان لعلها تؤثر فيه، وتخدعه، فيرجع عن السخرية و (الفضيحة) لها..

تشير المصادر إلى أن سيد درويش ذات مساء فوجئ بالعالة تعود إليه، غاضبة، مبدية الندم؛ دائمة البكاء، تقسم أشد الأيمان بأنّها خدعت فى الجواهرجى، وها هى ذى تعود إليه ثانية.. لم يكن سيد درويش غمراً حتى يخدع..

لقد حمل عوده وتركها وحدها دون كلمة عتاب.. أو هجاء وجلس فى حجرته الفقيرة فى جزيرة بدران، وراح يدندن بكلمات جديدة من طقطوقة (سيكاه) يبث فيها أسواقه، يقول:

اطلع من دول أنا مش منهم

ياللا اسرح دور على غيرى

وتتمطل الأوتار قليلا، ثم يواصل فى نغمة طويلة:

ما يغرکش ضحكى ولعبى

دى أمور نسوان وحياء ريبى

أحسن لك تسرح ع الشاطبى

وفضك منى ومن غيرى

ويصل فى السخرية إلى درجة قصوى:

بدك تعرف اسأل بابا

وان كنت حويط مش على بابا

أحسن لك تسرح بربابا

وفضك منى ومن غيرى

وفى محاولة للهروب من هذا الجو الذى كانت جليلة فيه تأتى مرة مستغفرة وتبعد مرات غاضبة، كان عليه أن يفكر فى طريقة يهرب فيها من هذا العالم الذى يظل يقذف به من قاع اليأس إلى قمة الأمل، ثم يعود به مرة أخرى إلى قاع اليأس وهكذا..

#### عودة المجد:

وقد تصادف فى هذا الجو أن كان صيت سيد درويش قد بلغ إلى مداه فى الإسكندرية، ووجد الكثير من الأصدقاء والفنانين يحتونه للذهاب إلى القاهرة حيث يقدر منه أكثر فى العاصمة.. وبالفعل، فإن سيد درويش لم يجد مناصاً من الهروب إلى القاهرة للفرار - فى المقام الأول - من جليلة، وربما - وهذا يأتى فى المقام الثانى - يستطيع هناك، فى العاصمة، العثور على فرصته الأكيدة فى الغناء والوصول فيه إلى مكانة عالية..

ورواد مقهى البوسفور فى ذلك الوقت كان من السهل عليهم أن يجدوا امرأة ضخمة الجثة تجلس فى الصفوف الأولى أمام المغنى الوافد من الإسكندرية - سيد درويش - وكانت تظهر فى كل حفلة فى هذا المقهى، حتى إذا ما انتهى الفنان من الدور الذى يؤديه أو الطقطوقة التى يذوب فيها حتى يجد نفسه وجهاً لوجه أمام العالمة، فيتجاهل ويحمل عوده، ويمضى مع كوكبة كبيرة من معجبيه.

#### ضيعت مستقبل حياتى:

وتكتشف العالمة بحس الأنثى أن الإقبال على الشاب الفنان والتردد عليه وعلى حفلاته يومياً سوف يزيد من صدوده، ومن هنا، بدأت هى - على الجانب الآخر - وصلات اللوم والعتاب

المشوب بالبكاء الطويل قبل أن تختفى لفترة من حياته، في حين ظل من حوله، ومن (عداله) بوجه خاص لا يتركونه في حاله، ومن هنا، تحول الفنان، في غياب جليظة، إلى النقيض.. وبعد أن كان يردد طقطوقة يقول في آخرها (.. يا خي فضك منى ومن غيرى)، راح يغنى بوراً جديداً، تصل الجودة فيه إلى درجة لم يسبقه إليه أحد، وهو دور شهير سجلته شركة (بيضافون) فيما بعد بصوت سيد درويش، وهو دور (ضيعت مستقبل حياتي) الشهير، يقول فيه:

ضيعت مستقبل حياتي في هواك  
وآزاد على اللوم وكتر البغدة  
حتى العوازل قصدهم دائماً جفاك  
وأنا ضعيف ما أقدرش أحمل كل ده

أن جفاك يرضى علاك  
أنا في حماك عفو الحبيب  
ما يكوئش أحسن من كده  
وينتهى المذهب ويبدأ الدور الذي يصل إلى أقصى نقطة في ذاكرته المتعبة الحزينة، ونستمع لصوت سيد درويش نفسه:

علمتني يا نور عيونى الامتثال  
واحتار دليلي بين تيهك والجوى  
كنت افكر حبك يزودنى كمال  
خيبت ظنى والهوى ما جاش سوا

تبقى سيب كل التعب  
وتزيد غضب واللى انكتب  
فوق الجبين ما لوش دوا

على أن سيد درويش الفنان الحزين يصل غضبه على نفسه إلى درجة أنه يخرج من أحزانه الغضة، ويرحل عن عالم المستقبل الضائع إلى عالم آخر لا يمت إلى الفنان عميق الحس في شيء، فهو يغادر الدور الرزين إلى طقطوقة أخرى أشبه (بالردح) الذي يذكرنا بحوارى الإسكندرية وأبناء البحر الذين يقابلون الغضب بالتحول - في التعبير عنه - إلى الوجه المناقض، إلى (الغيظ) الذي يصيب عدوهم في مقتل، إن أسلوب (الردح) هذا يعبر عنه في طقطوقة يقول فيها:

فلفل

اهرى يا مهري وأنا على مهلى أكيد واتفرج

على دى الفلفل

ان كان

طول المهجر

يكيدك أنا راح أكثر منه وازيدك

وان كان شىء

ممکن وبایدك ياللا نتفرج على دى الفلفل

..

كام مرة أقول ما انتش قدى ولا يمکنك تحمل صدی

فلقلت قوام

من دى ومن دى

خليك تتدرج على دى الفلفل

على أن هذا الأسلوب، الذى لا يتماشى مع إحساس فنان رقيق؛ يفسر، بأن سيد درويش - مثل كل فنان - يحوى فى داخله قدرًا كبيرًا من التمرد (الذى يسمى أحيانًا فى خبرات التحليل النفسى بالتطرف)، وهذا التمرد - الذى نجده فى دخيلة معظم الفنانين - يصل بصاحبه بين النقيضين، فتارة هو معتدل رزين، وتارة أخرى هو غاضب عنيف، وفى الحالين، يحمل الفنان قلبًا عطوفًا طيبًا، وهو ما يفسر به كيف يتأرجح من آخر بين الطرفين.

ويدل على هذا أنه بعد طقووة (الروح) هذه، صفت مشاعره، وعاد إليه حنينه القديم، وراح يستعيد ما كان مسيطرًا عليه؛ من إحساس طاغ بالكبرياء الذى يدفع دفعًا إلى إثارة كرامته، وفى النهاية.

.. وانتهيت

وعلى هذا النحو، فإن المؤلفات الموسيقية تسجل لنا كلمات دور جديد، ربما كان من بين أهم أدوار سيد درويش التى سوف تخلده، وهو الدور الذى ورد فى مذكراته (كما أوردها ابنه حسن فى كتابه الهام (من أجل أبى..)) فى بيان (دور حجاز كارکرد)، وهذا الدور تأتى مقدماته على هذا النحو:

أنا هويت وانتهيت

وليه بقى لوم العزول

يحب أنى أقول يا ريت  
الحب ده عنى يزول

أنا وحبيبى فى الغرام

ونتوقف عن إكمال الدور ذلك لأن قراء هذه السطور يعرفون البقية لقرط عذوبتها ورقتها بصوت سيد درويش نفسه..

على أن الذى يهمنا هنا، هو، أن العالمة التى حركت كثيراً من ماء البركة الراكض كان يمكن أن تحول هذا الماء إلى شرار يصيب صاحبه، غير أن الفنان العاشق استطاع أن يدرك أنه لن يكون ضحية علاقة هوجاء، الطرف الآخر فيها لا يعرف للهوى العقيف معنى صادقاً.  
ومن هنا، فإنه ما كاد يستقر فى القاهرة لفترة، ويتنقل بين الهوى والغضب وبين وصلات الغرام ووصلات (الفلفل المهرى)، حتى أدرك فى نهاية الأمر، أن المحتم هو أن ينتصر الفنان الذى كانت تنتظره مصر كلها.

كان على الفنان القادم من الثغر - سيد درويش - أن يدرك أن مصر فى السنوات القليلة التى تسبق ثورة ١٩١٩ مقبلة على ثورة دون شك، فراح يعمل فى أكثر من مسرح، ويتنقل فى أكثر من فرقة، وهو فى كل مرة يقترب أكثر من مشاعر الناس، حتى استطاع أن يلعب دوره الكبير فى ثورة ١٩١٩.

ويستطيع الكاتب أن يخصص مؤلفاً متفرداً للحديث عن دور سيد درويش فى ثورة ١٩١٩، لكننا نكتفى هنا (رغمنا) بالإشارة إلى إحدى المقطوعات التى راح يغنيها سيد درويش فى ذلك الوقت بعنوان (بنات اليوم)، وعلى رغم أن هؤلاء البنات اللاتى يعنى لهن سيد درويش بيننا وبينهن الآن قرابة سبعين عاماً، فإن الذى يسمع كلمات الأغنية يدرك - كما أدرك د. الحفنى - أن موضع الغرابة التى نحس بها حين نستمع إلى هذه الأغنية يعود إلى «سبقها لأوانها وتعبيرها عن حياة بنات يومنا الحاضر الذى نعيش فيه لا بنات اليوم الذى يعنيه» فى هذه السنوات البعيدة فى أوائل القرن العشرين.

وعلى رغم أن هذه الأغنية من تأليف أمين صدقى، فإن غناءها على لسان سيد درويش - من مسرحية قام بتلحينها - أضفى عليها معنى عميقاً، ولا نستطيع إغراء نقل مقطوعة كبيرة من (بنات اليوم) لنؤكد بها على دور الفنان حينئذ.

تقول مقدمة أغنية (بنات اليوم):

دا وقتك دا يومك يا بنت اليوم

قومي اصحى من نومك بزياداك نسوم  
وطالبي بحقوقك واخلصى من اللوم

ليه ما نكونشى زى الغربية وتجاهد فى حياتنا بحرية

معانا شهادات ودبلوماسيات  
ونعرف بولتيكة بالسبع لغات  
ليه ما نكونشى يا بيه زى الراجل ليه  
قول لنا هو زائد عنا ييه  
ويواصل عقب كل مذهب سؤاله الحائر:

مين فى دردحتنا وخفتنا مين

وقد كان التفات سيد درويش إلى القضايا الهامة التي تفرض نفسها عليه مؤشراً على الوعي الذى وصل إليه، فقد أدرك أنه بالدخول إلى عالم الناس، والاقتراب من قضاياهم يكون قد اقتنع بأن هجر (العائلة) أصبح واجباً عليه..

وبهذا، يكون سيد درويش قد أدرك أنه وصل إلى طريق المجد وفى اليوم الذى استطاع الفنان أن يتغلب فيه على نفسه، ويترك هواه إلى الواجب الذى ينتظره، راح يميل على عوده، وجلس صامتاً لبرهة ليعلو صوته قائلاً:

يوم تركت الحب كان لى

فى مجال الأتس جانب

ورأيت المجد عاد لى

بعد ما كان عنى غايب

مين يصدق بعد ميلى

أنى أقول الهجر واجب

وقد صدقناه جميعاً، وما زلنا نصدق، فسيد درويش كان أنبغ من أنجبته مصر فنياً فى النصف

الأول من هذا القرن حتى الآن..

هل يجرو أحد ويقول إن سيد درويش مات، أو ضاع مستقبله؟!؟

هل يجرو أحد...؟!؟

## أهم المراجع

- يمكن العود لتفاصيل لقاء سيد درويش وجلييلة فى بعض المواقع منها:

- [http://www\\_mahjoob.com](http://www_mahjoob.com)

- [http://jarelkamar.manalaa.net/Sayed\\_Darwish](http://jarelkamar.manalaa.net/Sayed_Darwish)

- تقول العديد من المراجع أن سيد درويش حين أحس بالحالة التى عاش فيها بمجرد أن عرف العالمة - جلييلة، فدفعه الحال إلى ترك الإسكندرية كي لاتحدث له هذه الأزمات فى الحياة الاجتماعية وقبلها فى الحياة الفنية، على سبيل المثال انظر :

- [http://jarelkamar.manalaa.net/Sayed\\_Darwish](http://jarelkamar.manalaa.net/Sayed_Darwish)